النزعة الصوفية في منظومة عبد الرحمان الأخضري الجوهر المكنون في صدف الثلاثة فنون

الأستاذ: معمر قول
جامعة قسنطينة

مقدمة:

الحمد لله الذي علم الإنسان البيان وجمل البيان بالقرآن والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله الطيبين الطاهرين وبعد:

مما يجليه القلم ويظهره البيان انتماء الإنسان ومشربه، فقد جاءت الكتابة ترجمة للمشاعر وبيانا لما خفي وتوارى في أعماق القلوب والضمائر، إذ تظهر نزعة الإنسان من بنات أفكاره وكلماته، وقد لمسنا ونحن نقرأ منظومة العلامة الأخضري في البلاغة نزعته الصوفية، وقد عنونا دراستنا بالنزعة لما فيها من دلالة قوية على ما أردنا بيانه وطرحه.

جاء في لسان العرب في بيان معنى هذه الكلمة ومرادفاتها: "نازعتني نفسي إلى هواها غالبتني، ويقال للإنسان إذا هوى شيئا ونازعته نفسه إليه هو ينزع إليه نزاعا، ونزع بمعنى حن واشتاق فهو نزوع" [1]

من خلال هذه الدلالة لمصطلح النزعة، هل غلب عبد الرحمان الأخضري هواه الفكري، وحن واشتاق إلى مدرسته الصوفية حتى وهو يكتب في فن غير التصوف وهل نزع إليه نزاعا؟

هذا ما سنحاول تجليته من خلال هذه الدراسة المتواضعة.

1- ترجمة عبد الرحمان الأخضري

عبد الرحمان بن محمد الصغير بن محمد بن عامر الأخضري، البنطيوسي [2] البسكري المغربي المالكي، لا يعرف تاريخ ولادته بالضبط، فقد اختلف في ذلك [3]، أما تاريخ وفاته فغير مضبوط وإن كان الدكتور أبو القاسم سعد الله قد ذكر تاريخا لذلك لكنه لم يجزم به بقوله: "تذهب معظم الروايات أن وفاته كانت سنة 953هـ بكجال بسطيف" [4]

وذكر يوسف سركيس في معجمه أن وفاته كانت في القرن العاشر الهجري [5]، دون تحديد ذلك بتاريخ.

أخذ العلم بقسنطينة عن الشيخ عمر الوزان، كما تعلم بالزيتونة وأخذ عن مشايخها، كما تلقى أصول الطريقة الشاذلية في التصوف على يد الشيخ محمد بن علي الخروبي.

مؤلفاته:

1- الجوهر المكنون في صدف الثلاثة فنون ط

2- الدرة البيضاء في حسن الفنون والأشياء في الحساب والفرائض ط

3- السراج في علم الفلك ط

4- السلم المرونق، منظومة في علم المنطق ط

5- شرح الدرة البيضاء ط

6- شرح السلم المرونق ط

7- مختصر في العبادات الموسوم بـ"مختصر الأخضري على مذهب الإمام مالك" ط

8- القدسية في التصوف مخطوط بالمكتبة الوطنية بالجزائر، تحت رقم: 2646 [6]

2-التعريف بكتاب عبد الرحمان الأخضري "الجوهر المكنون في صدف الثلاثة فنون "

1-**تسمية الكتاب:**

ورد في المؤلفات التي ترجمت لعبد الرحمان الأخضري أن مؤلفه هذا موسوم بـ"الجوهر المكنون في الثلاثة فنون"، لكننا اعتمدنا ما أورده المؤلف نفسه، فقد ذكر في مقدمة كتابه عنوان مؤلفه بقوله:

سميته بالجوهر المكنون في صدف الثلاثة فنون [7]

والثلاثة فنون، جمع فن والمراد هنا علم المعاني والبيان والبديع، فهذه جواهر والكتاب صدف أي وعاء لها.

وقد ذكر عادل نويهض في كتابه معجم أعلام الجزائر نفس التسمية التي أوردها عبد الرحمان الأخضري [8]

2-**بنية الكتاب:**

جاء المؤلف نظما يتكون من 292 بيتا أولها قوله:

الحمد لله البديع الهادي إلى بيان مهيع الرشاد

وآخر النظم قوله:

تم بشهر حجة الميمون متمم نصف عاشر القرون [9]

يتكون النظم من توطئة بين فيها ضرورة الفن الذي كتب فيه وسبب تأليفه لهذا الرجز بقوله:

وقد دعا بعض من الطلاب إلى رجز يهدي إلى الصواب

التقط المؤلف كتابه من مؤلف القزويني "التلخيص"، وهذا ما أشار إليه بقوله:

ملتقطا من درر التلخيص جواهر بديعة التخليص

ومقدمة بمثابة مدخل إلى البلاغة والفصاحة والمراد منهما، ثم قسم الكتاب إلى ثلاثة فنون، عرض في الفن الأول علم المعاني وذكر تحته ثمانية أبواب، ثم عرض الفن الثاني وهو علم البيان وذكر متعلقاته، ثم عرض البديع وما يتعلق به وخاتمة جاءت على نسق ما ختم به القزويني كتابه التلخيص.

3-النزعة الصوفية في كتاب عبد الرحمان الأخضري:

من خلال تأملنا في منظومة الأخضري يتضح لنا مشرب الرجل المتمثل في نزعته الصوفية، فقد انعكست على التشبيهات والتمثيلات التي أوردها، تارة باللفظ الصريح كلمة "صوفي" و"صوفية"، وتارة بالإشارة إلى ما يدل على ذلك كإشارته إلى مقام الذكر وأهميته في الطريق الصوفي وضرورته للمريد، وتارة بدعوته إلى ترك الأغيار وخلع رداء الدنيا للوقوف على باب الحق، وتارة بحديثه عن المقامات كالتوبة والإنابة وغيرها. وسنحاول عرض ذلك كله بشرح بسيط موردين كل مصطلح مع شرحه مع مراعاة وروده في منظومة العلامة الأخضري- رحمه الله- مقتصرين على ذكر بعضه لتجنب الطول والملل.

1- **الحضرة**: ورد ذكر هذا المصطلح ست مرات في المنظومة ومن ذلك قوله:

ما عكف القلب على القرآن مرتقيا لحضرة العرفان

تنبيه تفاؤل تشوف فاز بالحضرة ذو تصوف

أنشبت منية أظفارها وأشرقت حضرتنا أنوارها

هذه بعض المواضع التي ورد فيها ذكر المصطلح، والمراد بالحضرة الحضور مع الله عز وجل، وهو مصطلح صوفي، وقد جاء في الرسالة القشيرية في بيانه: "وأما الحضور فقد يكون حاضرا بالحق لأنه إذا غاب عن الخلق حضر بالحق وذلك لاستيلاء ذكر الحق على قلبه فحضوره يكون على حسب غيابه عن الخلق" [10]

2- **الذكر**: ورد هذا المصطلح خمس مرات في منظومة الأخضري وان كان استعماله في موضع لمعنى آخر غير الذكر ومن بين المواضع التي ذكر فيها:

كقولنا لعالم ذي غفلة الذكر مفتاح لباب الحضرة

تأدية المعنى بلفظ قدره هي المساواة كسر بذكره

وما سواه المتوار فادر كسرر مرفوعة في الذكر [11]

الذكر أساس الطريق الصوفي ورد الترغيب فيه في آيات كثيرة منها قوله تعالى: "وَاذْكُرُواْ اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ" [12]

وقوله- صلى الله عليه وسلم- في الحديث الذي رواه أبو الدرداء: "ألا أنبئكم بخير أعمالكم وأزكاها عند مليككم وأرفعها في درجاتكم وخير لكم من إنفاق الذهب والورق وخير لكم من أن تلقوا عدوكم فتضربوا أعناقهم ويضربوا أعناقكم؟ قالوا بلى، قال ذكر الله" [13]

ويعتبر الذكر على قول الأخضري مفتاحا لباب الحضرة. وجاء في الرسالة القشيرية ما يبين ضرورته للمريد ما نصه: "الذكر ركن قوي في طريق الحق سبحانه وتعالى بل هو العمدة في هذا الطريق ولا يصل أحد إلى الله إلا بدوام الذكر" [14]

وجاء في الحكم العطائية في التنبيه على خطر تركه: "لا تترك الذكر لعدم حضورك مع الله لأن غفلتك عن وجود ذكره أشد من غفلتك في وجود ذكره، فعسى أن يرفعك من ذكر مع وجود غفلة إلى ذكر مع وجود يقظة، ومن ذكر مع وجود يقظة إلى ذكر مع وجود حضور ومن ذكر مع وجود حضور إلى ذكر مع غيبة عما سوى المذكور" [15]

3- **التصوف:** ورد ذكر هذا المصطلح بمرادفاته: تصفية، صوفي، ثماني مرات منها قوله:

حبذا طريقة الصوفية تهدي إلى المرتبة العلية

وفصله يفيد قصر المسند عليه كالصوفي هو المهتد

والفعل والحرف كحال الصوفي ينطق إنه المنيب الموفي

مصطلح الصوفية لقب للطائفة أو لأهل الطريق، جاء في الرسالة القشيرية في وصف هذه الطائفة ما نصه: "لقد جعل الله هذه الطائفة صفوة أوليائه وفضلهم على كافة عباده،بعد رسله وأنبيائه- صلوات الله وسلامه عليهم- [16] وجعل قلوبهم معادن أسراره واختصهم من بين الأمة بطوالع أنواره..." [17]

4- **الزهد:** ورد ذكر المصطلح مرة واحدة في منظومة الأخضري في قوله عن المسند:

وأفردوه لانعدام التقوية وسبب كالزهد رأس التزكية

الزهد عند الصوفية من المقامات المهمة في الطريق التي يتدرج فيها السالك أو المريد في طريقه إلى الله وقد جعله صاحب الرسالة القشيرية المقام السادس بعد التوبة والمجاهدة والعزلة والتقوى والورع، ونقل الاختلاف في تعريفه وحده وضبطه وهل يكون- الزهد- في الحلال أو الحرام ونقل في ذلك عدة أقوال نقتصر على أهمها، ومنها: "سئل الجنيد عن الزهد فقال

خلو اليد من الملك والقلب من التتبع، وسئل الشبلي عن الزهد فقال أن تزهد فيما سوى الله تعالى" [18]

وجاء في الحكم العطائية: ما قل عمل برز من قلب زاهد ولا كثر عمل برز من قلب راغب"

والمعنى: "أن العمل الصادر من الزاهد في الدنيا كثير في المعنى وإن كان قليلا في الصورة لسلامته من الآفات القادحة في قبوله كالرياء والتصنع للناس وطلب الأعراض الدنيوية بخلاف الصادر من الراغب فيها فإنه على العكس من ذلك" [19]

هذا هو الزهد الحقيقي بخلاف المعنى الشائع والعرف القائم عند من جعله تركا للدنيا وإهمالا للأسباب، فليس هذا ما أراده القوم- الصوفية- وأوضحه العارفون بالله، إنما الزهد الحقيقي أن تخلع جلباب الدنيا من قلبك وتضعها في جيبك، وقد ورد هذا المصطلح في القرآن الكريم في قوله تعالى:" وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُواْ فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ" [20]

وجاء في تفسيرها: "وكانوا فيه من الزاهدين وصف يترتب في إخوة يوسف وفي الوارد ولكنه في إخوة يوسف أرتب، إذ حقيقة الزهد في الشيء إخراج حبه من القلب ورفضه من اليد وهذه كانت أحوال إخوة يوسف في يوسف" [21]

خاتمة:

هذه بعض المصطلحات الصوفية الواردة في منظومة الأخضري والتي تؤكد نزعة الرجل ومشربه اقتصرنا على شرح بعضها بالرجوع إلى أرباب هذا الفن- التصوف- من باب التأصيل، وإن كانت هناك بعض المصطلحات الأخرى كـ"العزلة" وكالفعل "ارتقى" الذي يحمل معنى التدرج والصفاء، وكذكر الفاسق والنهي عن مصاحبته، إذ هو أول خطوات الطريق وأول ما يلتزم به المريد وهو التوبة، ولا يحدث ذلك إلا بمفارقة وهجر رفقاء السوء، وكذا مصطلح "القدس" الذي يدل على المقام الإلهي و"الإشراق "و"الإنابة" وغيرها، وقد تجنبت إيراد كل المصطلحات لأمرين:

أولهما: الاقتصار وتجنب الطول المؤدي إلى التشعب

ثانيهما: شرح المصطلحات كان للاستئناس وتنبيه القارئ إلى الفرضية وصحتها بكون العلامة الأخضري- رحمه الله- ذو مشرب ونزعة صوفية. فالأخضري كانت تميل به نفسه وتجنح به إلى مشربه الصوفي، فكان يحن ويشتاق فهو نزوع.

وفي الأخير نأمل أن تكون هذه الدراسة المتواضعة مفتاحا لدراسات أخرى تكشف اللثام عن علمائنا الجزائريين عموما وعلامتنا عبد الرحمان الأخضري خصوصا، إذ الرجل خزانة معرفية تنتظر الاكتشاف خصوصا ما يتعلق بالدراسات الصوفية، لعل الله عز وجل أن يكتب لنا وقفة أخرى مع هذا الرجل لنكتشف زاوية أخرى من زوايا فكره. وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله الطيبين الطاهرين.

الهوامش

[1] لسان العرب، ابن منظور، دار صادر.بيروت.لبنان، بدون تاريخ مادة "نزع"، ص 4395.

2بنطيوس إحدى قرى بسكرة.

3لم تذكر الكتب التي ترجمت له تاريخ وفاته ولعل ذلك راجع إلى الاختلاف في ذلك.

ابو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، المؤسسة الوطنية للكتاب، ط 1985، ج1، ص 5074 بتصرف

يوسف سركيس، معجم المطبوعات العربية، مطبعة سركيس بمصر، ط 1928، ج1، ص406

5بتصرف.

6انظر ترجمة عبد الرحمان الأخضري ومؤلفاته في:نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار- الرحلة الورتيلانية- ، الحسين بن عمر الورتيلاني، مطبعة بيير فونتانا الشرقية الجزائر، ط1908، ص 86 وما بعدها/معجم المطبوعات العربية، يوسف الياس سركيس، ج1، ص 406 وما بعدها/مخطوطات المكتبة الأزهرية، مطبعة الأزهر، 1947/ شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، محمد بن محمد بن مخلوف، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، بدون تاريخ، ص 285 وما بعدها/تاريخ الجزائر الثقافي، أبو القاسم سعد الله، المؤسسة الوطنية للكتاب، ط 1985، ج 1، ص 507 وما بعدها/معجم أعلام الجزائر، عادل نويهض، المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ط1، 1971، ص90 وما بعدها.

انظر مقدمة الكتاب، على هامش كتاب شرح عقود الجمان، السيوطي، دار 7الفكر، بيروت.لبنان، بدون تاريخ، هامش ص18.

8 انظر في ذلك:معجم أعلام الجزائر، ص 90.

[9] هذا إشارة إلى تاريخ إتمام النظم الموافق لسنة 950هـ من شهر ذي الحجة.

[9]لرسالة القشيرية، القشيري، تح:معروف مصطفى رزيق، المكتبة

[10]العصرية، صيدا.بيروت.لبنان، ط1،2001، ص70 بتصرف

هذا اقتباس وهو إشارة إلى قوله تعالى:"فيها سرر مرفوعة " سورة الغاشية، الآية13، والذكر

[11]هنا اسم للقرآن الكريم.

[12]سورة الأنفال، الآية45.

[13] رواه الترمذي و ابن ماجة

[14]الرسالة القشيرية، ص221.

شرح الحكم العطائية، عبد المجيد الشرنوبي، دار الهدى.عين

15مليلة.الجزائر، ط1،1991، ص55.

هذا رأي يلزم صاحبه دون غيره، فالادعاء بالأفضلية ديدن كل طائفة، من المتكلمين والفقهاء

16والنحاة والمفسرين وغيرهم، فالكل يدعي انه الأفضل

وان قوله هو الفيصل، ولكن كل يؤخذ من كلامه ويرد إلا صاحب الروضة وصاحب

العصمة سيدنا محمد- صلى الله عليه وسلم-

17 الرسالة القشيرية، ص36.

18 المصدر نفسه، ص117.

19 شرح الحكم العطائية، ص 53.

20 سورة يوسف، الآية 20.

الجواهر الحسان في تفسير القرآن، عبد الرحمان الثعالبي، الأعلمي للمطبوعات، بيروت، بدون

21 تاريخ، ج2، ص229.